ظاهرةُ الاقتباس
في شعر أبي الفضل الطهراني
دراسة بلاغية

Quotation in Abi-A-Fadhil Al-Tahrani poetry
Rhetorical study

أ . د حسين عبد العال اللهيبي
كلية الفقه / جامعة الكوفة

Dr. Hussain Abdul-a'al Al-lahibi
Faqah college/Al-Kufa university

ملخص البحث

يعدُّ الاقتباسُ أحد فنون البديع الذي عرفته البلاغة العربية منذ عهدٍ مبكر ، وكان يعرف بالذوق ، ويتأتّى بالسليقة ، بعيداً عن التكلُّف والصنعة ، ثم ما لبث أنْ شاع في العصور المتأخرة حتى غدا ظاهرة لها أهميتها في الدرس البلاغي شأنه في ذلك شأن غيره من المحسّنات البديعية : كالجناس والتورية ، وإذا كان الاقتباس يتمثّل بتضمين المتكلم كلامه شيئاً من القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ فإنّ ذلك ممّا يزيد النص الذي يرد فيه وضوحاً وتأثيراً ، ويكسبه حينئذٍ حسناً وقوةً ، ويملؤه إشراقاً وبهاءً ؛ وهو أكثر فنون علم البديع أثراً وجذباً وتأثيراً ؛ لما للقرآن من موقع مستحسن في النفوس .

ويظلُّ الاقتباس مظهراً من مظاهر التعبير الفني الذي يستعين به الأديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، بما يؤدّي دلالة تعبيرية تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتجعله مقبولاً لديه ، كما يشهد لصاحبه بتمكّنه من القرآن الكريم ، والبصر بدقائق أسراره ، وقدرته على الإفادة منه .

ويمتلك الاقتباس خصائص إبداعية ، بعيدة الغور ؛ كونه يجمع بين معنيين مختلفين أحدهما المعنى الذي يريده النص القرآني المقتبس ، والمعنى الذي ساقه الشاعر ؛ مع ما يثيره في نفس المتلقي من تأملات ، ويدفع إليه من مقارنات ؛ وذلك عن طريق تسخير قدرة الاقتباس الخارقة في تلوين المضمون بظلال مبتكرة ، وألوان متنوعة ، فتضفي على المعنى جمالاً ، وتزيده قوة ، فضلاً عن عمق التأثير ، وجمال الأسر ، وروعة الأداء .

ومن هنا جاءت هذه الدراسة محاولة جادة للوقوف على القيمة البلاغية والجمالية لهذا الفن من خلال دراسة بنيته دراسة تحليلية ، وكان شعر أبي الفضل الطهراني مادة تطبيقية لهذا الفن ، إذ ألّف فيه الاقتباس ظاهرة أسلوبية متينة لا تقلّ شأناً عن غيره من فنون البديع الأخرى الواردة في شعره ؛ فضلاً عن الصور والمشاهد الغنية والدقيقة التي استعارها من القرآن الكريم ، قصد الاستعانة على تأييد المعنى المقصود وتقويته ، وإضفاء صفة القداسة والتبجيل للأمر الذي يتحدّث عنه .. .

Abstract

Key words: Holly Qura'an/Quotations/phonetic optimizers

Synopsis:

Quotation is one of Budaiya arts that Arabic rhetoric has known since early era. It was known with decorum and innateness, away from preciosity and affectation then, as soon as it has spread in last decades and becomes as the phonetic optimizers like: paronomasia, antonmasia, if the quotation resembled by including implicating the speaker's speech some of Holly Qura'an and prophetic tradition, so that will enrich the text with clarity and effectiveness, meanwhile, the text will gain prettiness and power, it will filled with brightness and magnificence which is the most effective, attractive and effectuation part of Arts of Budayia, as to what Holly Qura'an has an advisable touch in souls. Quotation is still an aspect of article expression in which the artist used in expressing his feelings and senses, that leads to an expressive guide participating in designing the meaning in the reader's mind and making it acceptable, moreover, it gives an impression that the artist had a well knowledge of holly Qura'an and it's smallest secrets, with the ability of making use of it. Quotation has creative characteristics, far reaching, as it brings together between two different meanings, one of them is the meaning that holly Qura'an indicates, and the other is the meaning of what the poet is trying to give accompanied with its effects on the listener or reader such as contemplations and comparisons through exploitation of the super quotation ability in coloring the content with a creative shadows , variant colors, which gives beauty to the meaning, and enriches it with power , moreover, the depth of the effect, the beauty of influence, charming of performance. This study is a serious attempt to see the rhetorical and beautiful value of this art through studying its construction analytically. Abi- Al-Fadhil Al-Tahrani poetry was an implied subject of this Art in which quotation composed a strong rhythmical phenomena no less than other arts that are found in his poetry beyond the image and rich scenes that are borrowed from holly Qura'an, he meant to borrow in order to support and strengthening the intended meaning and adding holiness and reverence to the subject he is talking about.

المقدمة

يعدُّ الاقتباسُ واحداً من أبرز فنون البديع ، كونه يعتمد تضمين الكلام شيئاً من القرآن الكريم ، وفي هذا ما يزيد النص الذي يرد فيه وضوحاً وتأثيراً ، ويكسبه حينئذٍ حسناً وقوةً ، ويملؤه إشراقاً وبهاءً .

ونزوع الأدباء طلباً لتدعيم المعنى وتقويته ، وما يضفي على النصّ المقتبس من الجمال والرقة والبهجة ؛ لما فيه من محاسن انتزاع الأدباء ، وبدائع اختراعاتهم ، وعجائب استنباطاتهم .

وكان يعرف بالذوق ، ويتأتّى بالسليقة ، بعيداً عن التكلُّف والصنعة ، ثم ما لبث أنْ شاع في العصور المتأخرة حتى غدا ظاهرة لها أهميتها في الدرس البلاغي شأنه في ذلك شأن غيره من المحسّنات البديعية : كالجناس والتورية .

ويظلُّ الاقتباس مظهراً من مظاهر التعبير الفني الذي يستعين به الأديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، بما يؤدّي دلالة تعبيرية تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقي وتجعله مقبولاً لديه ، كما يشهد لصاحبه بتمكّنه من القرآن الكريم ، والبصر بدقائق أسراره ، وقدرته على الإفادة منه .

ويمتلك الاقتباس خصائص إبداعية ، بعيدة الغور ؛ كونه يجمع بين معنيين مختلفين أحدهما المعنى الذي يريده النص القرآني المقتبس ، والمعنى الذي ساقه الشاعر ؛ مع ما يثيره في نفس المتلقي من تأملات ، ويدفع إليه من مقارنات ؛ وذلك عن طريق تسخير قدرة الاقتباس الخارقة في تلوين المضمون بظلال مبتكرة ، وألوان متنوعة ، فتضفي على المعنى جمالاً ، وتزيده قوة ، فضلاً عن عمق التأثير ، وجمال الأسر ، وروعة الأداء .

ومن هنا جاءت هذه الدراسة محاولة جادة للوقوف على القيمة البلاغية والجمالية لهذا الفن من خلال دراسة بنيته دراسة تحليلية ، وكان شعر أبي الفضل الطهراني مادة تطبيقية لهذا الفن ، إذ ألّف فيه الاقتباس ظاهرة أسلوبية متينة لا تقلّ شأناً عن غيره من فنون البديع الأخرى الواردة في شعره ؛ فضلاً عن الصور والمشاهد الغنية والدقيقة التي استعارها من القرآن الكريم ، قصد الاستعانة على تأييد المعنى المقصود وتقويته ، وإضفاء صفة القداسة والتبجيل للأمر الذي يتحدّث عنه ؛ كلّ هذا أكدَّ لي أهمية الموضوع ، إذ وجدتُهُ موضوعاً جديراً بالبحث وبذل الجهد ؛ ليكون بحثاً علمياً في الدراسة البلاغية . وقد اقتضت خطة البحث أنْ يقسّم إلى تمهيد ومبحثين :

تناولنا في التمهيد حياة الشاعر أبي الفضل الطهراني فيما يتعلّق بنشأته وثقافته وآثاره .

في حين تطرّقنا في المبحث الأول إلى حدّ الاقتباس وقيمته البلاغية وموقف البلاغيين منه .

أمّا المبحث الثاني فقد تحدّثنا فيه عن أقسام الاقتباس في شعر أبي الفضل الطهراني .

(حياة الشاعر أبي الفضل الطهراني)

هو الميرزا أبو الفضل أحمد ابن الميرزا أبي القاسم ابن الحاج محمد علي ابن الحاج هادي النّوري الكلنتري[١] ، وأصل أسرته من بلدة نور من أعمال مازندران ، أصل جدّه منها[٢] ، وإليها نسب . وكنيته أبو الفضل وقد غلبت على اسمه ، فكان لا يعرف إلاّ بها ، وبها اشتهر .

أمّا لقبه الذي اشتهر به ، وكان لا يعرف إلاّ به فهو الطهراني ؛ لأنّ مولده ونشأته في مدينة طهران ، ولقّب بكلنتري نسبة إلى خاله محمود خان كلنتر الذي صلبه ناصر الدين شاه القاجاري عام المجاعة[٣] .

أمّا أسرته فهي من الأسر العلمية المعروفة في إيران ، فقد كان والده الميرزا أبو القاسم ناب درس الشيخ مرتضى الأنصاري وصاحب التقريرات المعروفة في الأصول .

ولد أبو الفضل سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م ، في مدينة طهران[٤] ، وإليها نسب ، وقد فارقها في أول شبابه مهاجراً إلى مدينة النجف الأشرف ، فدرس بها علوم الدين والعربية من : فقهٍ وأصول وتفسير وحديث ونحو ، وكان مشغوفاً بالدرس والبحث والمطالعة ، وقد حاز قصب السبق فصار العلم الذي يشار إليه . وكان من بين من اتصل بهم ، وأخذ عنهم من العلماء الأفذاذ :

١- السيد محمد حسن الشيرازي .

٢- الشيخ محمد تقي الشيرازي

٣- السيّد محمد الأصفهاني[٥] .

مكث أبو الفضل في النجف عشر سنوات من الدراسة والبحث ، عاد بعدها إلى طهران فسكنها ، وفيها افتتح مدرسة سبهسالار ، وأسكن فيها الطلبة ، واشتغل بالتدريس فيها سنة ١٣١٢هـ[٦] .

عرف أبو الفضل الطهراني بشرف النفس ، وكرم الطباع ، وحسن السلوك ، وقد شهد له مترجموه بالفضل والتفوّق فقد كان - كما يقول السيد محسن الأمين (عالماً فاضلاً ، فقيهاً أصولياً ، متكلّماً عارفاً بالحكمة والرياضيات ، مطلّعاً على السير والتواريخ ، مشاركاً في علوم شتّى أديباً شاعراً ، حسن المحاضرة ، لطيف المحاورة ، حسن المعاشرة)[٧] . وقال فيه الدكتور حسن الحكيم (وأصبح العلامة عالماً فاضلاً ، مجتهداً وأديباً شاعراً ، وحكيماً رياضياً ، ومؤرّخاً رجالياً ، ومفسّراً بارعاً)[٨] .

كان أبو الفضل الطهراني على جانبٍ كبير من العلم ، موفور الحظّ من الثقافة ، وقد برع في نظم الشعر من خلال إطلاعه الواسع على دواوين الشعراء ، وإلى ذلك ألمع الأستاذ علي الخاقاني بقوله (إنّه حفظ الشعر العربي حتى صارت له فيه ملكة ، وكان ينظم الشعر الجيّد)[٩] .

وأبو الفضل الطهراني يعدُّ في الذروة من شعراء إيران الذين يجيدون النظم في اللغة العربية ، وعلى الرغم من شهرته عالماً فقيهاً أصولياً إلاّ أنّ الغالب عليه الأدب والشعر . فقد كان أديباً شاعراً ، ومؤلّفاً ، واسع الاطلاع ، ذا ذوق رفيع ، له قدرة تامة على النظم ، وكان على فارسيته عربي النظم ، وكانت له أشعار جيدة تحتوي على نكات بديعة ، ومعان دقيقة ، ويوشك أنْ يكون جرى في طريق مهيار من نظم المعاني الفارسية بالألفاظ العربية[١٠] .

مات أبو الفضل في طهران سنة ١٣١٧هـ ، أو سنة ١٣١٦هـ ، ونقل إلى النجف فدفن فيها . وقد ترك آثاراً كثيرة منها :

١- ديوان شعر كبير باللغة العربية .

٢- شفاء الصدور في شرح زيارة عاشور .

٣- أرجوزة في النحو
٤- ميزان الفلك منظومة في الهيئة .
٥- كتاب في التراجم
٦- صدح الحمامة في ترجمة والده[١١] .

المبحث الأول
((حدّ الاقتباس وقيمته البلاغية))

يعدُّ أبو الفضل الطهراني بحقّ من شعراء إيران المبرّزين في القرن الماضي ؛ لما له من أسلوبٍ خاص في النظم ، يغلب عليه اللطف والسهولة والبراعة ، وقدرة فائقة في التعبير عمّا يجيشُ في صدره من انفعالاتٍ وأحاسيس تمثّل ترجمة حيَّة لنوازع النفس وخلجاتها ، وما يعتريها من مظاهر السخط والرضا ، والحبِّ والبغض ، والفرح والحزن ..... لقد كان الشعر من أهمّ آثار أبي الفضل الطهراني ، وأعظم مجالاته نبوغاً ، وشهرته فيه أعظم من شهرته عالماً وفقيهاً

ويشكّلُ الاقتباس ظاهرة فنية برزت في شعر أبي الفضل الطهراني .. فقد كان أبو الفضل شديد العناية بالاقتباس ، ومن يتأمّل شعره وما تضمّنه من اقتباسات يشهد له : بطول الباع ، وسلامة الطبع ، وأصالة الفنّ ؛ حرصاً منه على بلوغ السبق الأدبي ، وإظهار مهارته الفنية ، وكان لا بدّ لنا في هذا المبحث من التعريف بالاقتباس ، وإظهار قيمته الفنية ، وموقف البلاغيين منه ، وأول ما نقف عنده ، هو :

أوَّلا – حدُّ الاقتباس :

ويراد به تعريف الاقتباس لغة واصطلاحا :

١- الاقتباس لغةً :

الاقتباس في اللغة هو طلب القبس ، وهي الشعلة من النار ، وهو مأخوذ من اقتباس النار والضوء ، واقتباس نور المصباح من نور القبس ، وهو الشهاب على نحو ما جاء في القرآن الكريم (أَنْظُرُونا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكُم) [الحديد : ١٣] ، ثمّ استعير اللفظ لطلب العلم ، يقال اقتبستُ منه علما أي استفدته[١٠] ، وقبس علماً تعلّمه ، ثمّ استعير اللفظ للقرآن والحديث الشريف ؛ لأن (القرآن والحديث أصل الأنوار العلمية)[١٢] ، وإذا كان الاقتباس بمعناه اللغوي هو (أخذ النار ، واستفادة العلم ، ومناسبة كلا المعنيين بصنعة الاقتباس ظاهرة ؛ فإنّ المتكلم أخذ من القرآن والحديث في كلامه ما هو بمنزلة جذوة نارٍ تضيء في كلامه)[١٣] .

٢- الاقتباس اصطلاحاً :

والاقتباس في اصطلاح علماء البلاغة له أكثر من تعريف ، وهذه التعريفات وإنْ اختلفت لفظاً ، فإنّها متفقة معنًى ، ويبدو أنّ أوّل من عرّفه هو الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، بقوله (اقتباس الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت درجاتهم من كتاب الله - عزّ اسمه – في خطبهم ومخاطباتهم ، حكمهم وآدابهم ، وأمور معاشهم ومعادهم ، وفي مكاتباتهم ومحاوراتهم ، ومواعظهم وأمثالهم ، ونوادرهم وأشعارهم ، وسائر أغراضهم)[١٤] .

وحاول ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) أنْ يحدّ الاقتباس ويرسم معالمه ، إلاّ أنّه لم يأت بالتعريف الجامع المانع ، وهو يرى أنّ الأديب إذا أراد أنْ يقتبس من القرآن فعليه (أنْ يُضمّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق)[١٥] . فهو إذن يشترط في الاقتباس ألاّ ينقل فيه اللفظ المقتبس منه عن معناه الأصلي إلى معنًى آخر .

أمّا شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥هـ) فإنّه يرى في

الاقتباس (أنْ يُضمَّن الكلام شيئاً من القرآن والحديث ، ولا ينبّه عليه للعلم به)[١٦] .

وعرّفه يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩هـ) بأنّه (ما كان من الكلام مشتملاً على ذكر آية من كتاب الله تعالى ، أو كلمة جيء بها من أجل فخامة شأنه ، وتحسيناً لنظامه ، فتكون ياقوتة لوشاحه ، وشعلة في مصباحه ، ودرة في تاجه ، وزيتونة سراجه ، وزبدة في ثمرته وكريم نتاجه)[١٧] .

والاقتباس عند ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) هو (أنْ يأتي المتكلم في كلامه المنظوم ، أو المنثور بشيءٍ من ألفاظ القرآن ، أو الحديث مع قطع النظر عن كونه لفظ المقتبس منه)[١٨] .

ويرى ابن معصوم (ت١١٢٠هـ) أنّ الاقتباس (هو تضمين النظم أو النثر بعض القرآن لا على أنّه منه ، بأنْ لا يقال فيه : قال الله أو نحوه ، فإنّ ذلك حينئذٍ لا يكون اقتباساً)[١٩] . ومراد ابن معصوم (لا يكون اقتباساً) ، هو أنّ الاقتباس قد يختلط بمحسّنٍ بديعي آخر هو العقد وهو أنْ ينظم نثراً أو حديثاً أو مثلاً ، أو غير ذلك لا على طريق الاقتباس بأنْ يقع تغيير كثير ، ويشير إلى أنّه من القرآن[٢٠] . وهذا يعني أنّ العقد يشترط فيه التنويه بأنّ المقتبس منه هو جزء من القرآن الكريم .

وإذا كان الاقتباس هو أنْ يضمن المتكلم كلامه شيئاً من القرآن الكريم ، والمراد هنا (بتضمينه أنْ يذكر كلاماً وجد نظمه في القرآن أو السُنة مراداً به غير القرآن ، فلو أخذ مراداً به القرآن لكان ذلك من أقبح القبيح)[٢١] .

ومن هنا فإنّ الاقتباس هو تضمين الكلام شيئاً من القرآن الكريم ، والحديث الشريف دون الإشارة إليهما ، لتقوية المعنى ، وتأكيد الكلام ، ويشترط فيه أنْ يحتفظ فيه اللفظ المقتبس منه على معناه الأصلي دون أنْ ينقل إلى معنًى آخر ، ويجوز أنْ ينقل فيه اللفظ المقتبس منه عن المعنى الأصلي إلى معنًى آخر[٢٢] . أو بعبارة أخرى : يصحّ القول إنّ ما اقتبس من القرآن الكريم أنْ يكون غير خارج عن معناه الذي ورد به القرآن ، ويصح أنْ يكون خارجاً بشيءٍ من التصرّف ، وفي الحالة الأولى يُعدّ المقتبس منه قرآناً ، بشرط أنْ لا يكون فيه أدنى تحريف لفظي ، وفي الحالة الثانية لو اقتبس منه بشيء من التغيير اللفظي لا يعدُّ قرآناً ؛ لأنّه حينئذٍ نقل بالمعنى .

يتألّف الاقتباس في بنائه التعبيري من ثلاثة أركان هي المقتبس والمقتبس منه والمقتبس له ، فالمقتبس هو الأديب سواء أكان شاعراً أم كاتباً أم خطيباً ، والمقتبس له النص الأدبي سواء أكان شعراً أم نثراً ، والمقتبس منه هو القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وسواهما لا يعدُّ اقتباساً .

ثانياً- أهمية الاقتباس وقيمته البلاغية :

يبقى القرآنُ الكريم معجزة الرسول محمد - صلّى الله عليه وآله وسلم- تلك المعجزة التي أبهرت العقول ، وأدهشت النفوس ، وقد تحدّى بها العرب مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فألجم ألسنتهم ، وعقل بيانهم ، وعجزوا عن مجاراته ، مع جدّهم واجتهادهم في إزالة أمره ، وإبطال دعواه ، هذا والقرآن يقرعُ أسماعهم بين الحين والآخر متحدياً لهم بقوله تعالى :(قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادقين) [هود : ١٣] ، وقوله تعالى : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) ، [البقرة : ٢٣] .

ويظهر أثر القرآن الكريم في الأدب العربي منذ نزوله ، والمتمثل بما اصطلح عليه البلاغيون بالاقتباس ، فهذا (النبي – صلّى الله عليه وآله وسلم – هو أفصح

العرب لهجةً ، وأعذبهم عذبة ، وأحسنهم إفصاحاً وبياناً ، وأرجحهم في الحكمة البالغة ميزاناً ، قد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه ، والجمّ الغفير من مقاله ، وكذلك السلف الأفضل من الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم أجمعين – ومن بعدهم إلى يومنا من كلّ طبقة ، فما أكثر ما عوّلوا على الاقتباس من القرآن، فرصّعوا كلامهم ترصيعاً ، وتعاطوا فنونه جميعاً)[٢٣] .

لقد ترك القرآنُ بصماتِهِ على الشعر والنثر على حدٍّ سواء ، وكان أثرُهُ فيهما عميقاً ، كما بعث في نفوس الأدباء حسّاً جمالياً ، دفعهم إلى مجاراةِ أسلوبِهِ ، وترسُّم خطاه (وكفى بالقرآن وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام)[٢٤] ، فهو (أنجح ما ضمّنه المرتجل ، وأرجح ما استعان به المحتفل؛ لأنّه الموعظة الحسنة ، والحجّة البالغة ، والحكمة الباهرة)[٢٥] ، فأخذوا يرتشفون من فيضِهِ ، وينهلون من معينِهِ الثر ، وقصارى جهدهم فيه : (أنْ يقتبسوا من ألفاظه ومعانيه في أنواع مقاصدهم ، أو يستشهدوا ويتمثلوا في فنون مواردهم ومصادرهم ، فيكتسي كلامهم بذالك الاقتباس معرضاً ما لحسنه غاية ، ومأخذاً ما لرونقه نهاية ، ويكسبُ حلاوةً وطلاوة ما فيها إلاّ معسولة الجملة والتفصيل)[٢٦] .

ومن غير شكٍّ أنّ القرآن الكريم يبقى ميداناً فسيحاً للأدباء ينهلون من معينه ، ويتحسّسون مواطن الجمال فيه ، فلم يألوا جهداً في مجاراته ، والإفادة من أساليبه، وإظهار مهاراتهم الفنية ، وقدراتهم الإبداعية على النظم فيه ؛ فاقتبسوا من ألفاظه ومعانيه وصوره، متمثلين بآياته الكريمة في مخاطباتهم وأشعارهم .

لقد هام الأدباء بالاقتباس من القرآن الكريم ، من خلال نزوعهم إلى توشية كلامهم نثراً وشعراً بالآيات القرآنية ، فهم يتذوقون بلاغة القرآن ، وينهلون من معينه ، فاستمدّوا منه ألفاظهم ومعانيهم وصورهم .. وفي هذا ما يكفي للاستدلال على سموّه وجلالته وروعته ، وحسن موقعه من النفوس .

ونزوع الأدباء إلى توشيح كلامهم بشيءٍ من القرآن الكريم ؛ لأنّه كتاب الله الذي (يملأ القلوب بشراً ، ويبعث القرائح عبيراً ونشراً ، ويحيي القلوب بأوراده)[٢٧] ، فضلاً عن أنّه يزيّن الكلام لدى المتلقي بما يضفي عليه من التأثير والقوة عن طريق تداعيات المعاني ، وإيحاءات الألفاظ ، فتعظم به الفائدة فيه ، كما أنّهم : (وجدوا فيه لإقامة الحجّة ، وقطع النزاع، وإذعان الخصم ، وقد تقومُ الآية الواحدة المستشهد بها في بلُوغ الغرض ، ما لا تقومُ به الكتب المطوّلة، والأدّلة القاطعة)[٢٨] .

ويظهر أثر القرآن في مجال خصائص الشعر وسماته، فالشعراء يحرصُون على تطعيم نتاجهم بفيض القرآن الكريم ؛ طلباً لتدعيم المعنى وتقويته ، وما يضفي عليه من الجمال والرقة والبهجة فهو (يُورث الكلام البهاء والوقار ، والرقة وسلس الوقع)[٢٩] ، ممّا يؤدّي به إلى الوضوح والتأثير ؛ أضف إلى ذلك ما للقرآن (من حسن الطلاوة ، ولطف الرونق ، ما يدرك بالضرورة ، ويظهر التفاوت بينه وبين غيره بالحسن والذوق ، وما ذاك إلاّ إنّه كلام لم تقتضيه مدارج الألسنة ، ولا سمحت قريحته بمعارضة لفظةٍ من ألفاظه على تكرّر الأيام والأزمنة)[٣٠] .

لقد اتكأ الشعراء على مفردات القرآن ؛ لما لها من صلة بكلام الله عز وجل ؛ ولما توفره هذه المفردات من قدرات إيحائية وتعبيرية تعظم الفائدة بها ، ويستثمرها الشعراء في شتى الظروف والمناسبات التي يمرّون بها ، وتمرُّ بهم ؛ فلكلّ شاعرٍ قدرته في

التعبير ، وموهبته المميّزة التي تمكّنه من التعامل مع معطيات النص القرآني ، وما من ريبٍ في أنّ (الألفاظ المقتبسة من القرآن ، أو الحديث تزيد الكلام قوّةً وبلاغة ، كما تضفي عليه حسناً وجمالاً ، إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع ، والنور المشرق ... والمتكلم عندما يقتبس يبني كلامه على الالتئام والتلاحم ، وبهذا يبدو كلامه قوياً بليغاً)[٣١] .

وصفوة القول في الاقتباس : إنّه أحد فنون البديع الذي عرفته البلاغة العربية منذ عهدٍ مبكّر ، وكان يعرف بالذوق ، ويتأتّى بالسليقة ، بعيداً عن التكلُّف والصنعة ، ثم ما لبث أنْ شاع في العصور المتأخرة حتى غدا ظاهرة لها أهميتها في الدرس البلاغي شأنه في ذلك شأن غيره من المحسّنات البديعية : كالجناس والتورية ، وإذا كان الاقتباس يتمثّل بتضمين المتكلم كلامه شيئاً من القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ فإنّ ذلك ممّا يزيد النص الذي يرد فيه وضوحاً وتأثيراً، ويكسبه حينئذٍ حسناً وقوةً ، ويملؤه إشراقاً وبهاءً ؛ وهو أكثر فنون علم البديع أثراً وجذباً وتأثيراً ؛ لما للقرآن من موقع مستحسن في النفوس .

المبحث الثاني
أنواع الاقتباس في
شعر أبي الفضل الطهراني

استعان أبو الفضل الطهراني بالقرآن كثيراً في التعبير عمّا يجيشُ في صدره ، من خلال نزوعه إلى الأخذ منه مراراً وتكراراً ، وكأنّما جعل ذلك خاصة فنية له تميّزه من نظرائه الذين غرقوا بفنون البديع الأخرى : كالتورية والجناس وغيرها ، بما يشهد له بطول الباع ، والفهم الدقيق ، والذوق الصحيح في اختيار المناسبة من غير أنْ يعتري اللفظ شذوذ أو قلق أو حرج ، ومن غير أنْ يبدو الكلام مرذولاً مردوداً .

وفي ديوان أبي الفضل الطهراني نتلمّس كثيراً من الاقتباس الذي يدلُّ على طاقة إبداعية هائلة ، وقدرة فنية واسعة في استثمار النصّ القرآني استثماراً يليق بالمعنى الذي يروم إيضاحه ، وإبراز صورته .

وإذا كان أبو الفضل الطهراني قد نشأ نشأةً دينية وأدبية ، فإنّ هذه النشأة جعلته يتفاعل مع القرآن الكريم ، متأثراً به ، منفعلاً بمعانيه ، ناطقاً بألفاظه، فهو ينهل من معينه ، ويعتمد عليه في ألفاظ شعره ومعانيه وصوره اعتماداً كبيراً ، ويأخذ منه أخذاً مباشراً ، ويبدو ذلك جلياً من خلال تناثر الألفاظ القرآنية في تضاعيف شعره بشكلٍ ينمّ عن ثقافةٍ قرآنية واسعة ، مسخّراً إياها لفظاً ودلالة ، وإذا تأملنا شعر أبي الفضل الطهراني نجده مفتوناً بالاقتباس افتناناً جعله يستعمله كثيراً حتى أصبح سمةً بارزةً، ومعلماً واضحاً في شعره ، وقد تهيأ له من القدرة الفنية ، والطاقة الشعرية ما جعله في طليعة الشعراء المشهورين بهذا الفن ، وهو دليل على تمكّنه من كتاب الله واستظهاره له ، وتدبّره لمعانيه حتى غدا (مصوّراً في فكره ، دائراً على لسانه ، ممثّلاً في قلبه ، ذاكراً له في كلّ ما يرد عليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها ، ويفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها وكفى بذلك معيناً في قصده، ومغنياً له عن غيره)[٣٢] . ونستطيع أنْ نتلمّس ملامح الاقتباس في شعر أبي الفضل الطهراني في نوعين، هما :

أولاً – الاقتباس النصي (المباشر) :

يتمثّل الاقتباس النصّي بما يؤثره الشاعر من آي الذكر الحكيم : سواء أكان آية ، أم جزءاً من آية، أم حديثاً شريفاً يقتبسها نصّاً ، فيودعها في تضاعيف

شعره من دون أنْ يتصرّف بألفاظها على وجهٍ لا به أحد ، وكأنّه جزءٌ من شعر الشاعر ؛ بل من دون أنْ ينبّه هو عليه ؛ (لأنّ القرآن أبين من أنْ يحتاج إلى بيان ، وكيف يخفى وهو المعجز الذي لو اجتمعت الجن والإنس على أنْ يأتوا بمثله لا يأتون بمثله)[٣٣] . وهذا يعني أنّه لا يحوّل المقتبس منه عن لفظه ، بل يورده الشاعر بلفظه كما هو من غير تغيير شيء من لفظه بغيره ، وإنّما يوظّف الشاعر النص المقتبس منه في معنًى آخر ، خدمة للغرض الذي يرمي إليه الشاعر ، والموقف الذي يمرّ به .

ويظهر الاقتباس في شعر أبي الفضل الطهراني – في هذا الجانب – من خلال ما ضمّنه من آيات قرآنية تصرّف بها بما ينسجم ودلالة الغرض الشعري الذي نظّمت لأجله . وكثيراً ما يقع اقتباسه لها في قوافيه ، وفي هذا دليل على براعته الفائقة ، وقدرته الفنية المتمكّنة ، ممّا جعله فيما بعد يُعْنى باقتباس كثير من النصوص القرآنية في شعره ، والأمثلة في هذا الباب كثيرة جدّاً ، ومن أمثلة هذا النوع قوله[٣٤] :

[الكامل]

نحن الأُلى ملكوا البرية بالعلى

وعلى الأنام استوجبوا التفضيلا

ليس امرؤٌ إلاّ وصحف علائنا

(تملى عليه بكرةً وأصيلا)

في هذا النصّ يتحدث عن أصله ، ويفتخر بأرومته ، ويعتد بقوميته ، وما لقومه من الفضل ونبل الأصل ، وكرم المحتدّ ، فسجلّهم حافل بالمآثر والمفاخر لا يخفى على أحد ، فهي تملى على من أراد يعرف حقيقة ذلك بكرة وأصيلا ؛ معتمداً في إبراز المعنى على الآية الكريمة (تُملى عليه بكرة وأصيلا) ، [الفرقان ٢٥] ، مع أنّ المعنى الذي يرمي إليه الشاعر لا يتفق ومدلول الآية المقتبسة .

ومن روعة الاقتباس الذي جاء رافلاً بحلية التورية قوله يرثي الشيخ عباس والد الحاج فضل الله النوري[٣٥] :

[الطويل]

لعمري لئن أودى فقد عاش مجدهُ

بخير سليلٍ فيه يغدو منعّشا

وأبقى فتًى ملأ المسامع فضله

و(ذلك فضل الله يؤتيه من يشا)

فالشاعر في هذا النص يرثي عزيزاً عليه هو الفقيد عباس النوري ، ويعزّي ولده (فضل الله) فهو خير سليل للفقيد ، وقد ملأ السمع فضلاً وعلماً وشرفاً ، وهو في ذلك يستحضر مقام وسياق الآية القرآنية الكريمة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) ، [المائدة : ٥٤] . والتورية واضحة في لفظة (فضل الله) التي استعملت في معنيين أحدهما يحتمل أنْ يكون اسم المعزّى وهو فضل الله ابن الحاج عباس النوري ، وهو المعنى القريب المورّى به ، والثاني يحتمل أنْ يكون المعنى الحقيقي (فضل الله) وهو المعنى البعيد المورّى عنه ، بقرينة ملأ المسامع فضله ، وهذا هو مراد الشاعر .

ونمضي معه في طائفة جميلة من اقتباساته التي أدرجها في تضاعيف شعره ، ومن ذلك قوله لمحبوبه الذي تعجّب حين رأى شيبه وقد علا مفرقه[٣٦] :

[الوافر]

أتعجب إنْ رأيت بي المشيبا

وهجرك (يجعل الولدان شيبا)

قد انتهبت عيونك رحل عقلي

ومن يسترجع الرحل النهيبا

وقع الاقتباس كأحسن ما يكون في البيت الأول حيث

أخذه الشاعر من قوله تعلى (فكيف تتقون إنْ كفرتم يوماً يجعلُ الولدان شيباً) ، [المزمّل : ١٧] . مع أنّ المعنى الذي يرمي إليه الشاعر لا يتفق ومدلول الآية فهو يتحدّث عن هجر المحبوب وتعلّقه به ، وقد ذاب فيه صبابة ووجداً ، ولم يبق منه إلاّ الجفاء والهجر ؛ ذلك الهجر الذي عجّل عليه بالشيب ، إنّه هجر المحبوب الذي يجعل الولدان شيبا مستثمراً معنى الآية الكريمة للتدليل على المعنى الذي قصد إليه الشاعر ، وكأنّه أراد أنْ يقول لمحبوبه : لا تتعجب إذا رأيت الشيب وقد علا مفرقي ، فقد ملكت قلبي بجمالك، وأسرت عقلي بهواك ، ومع هذا فأنت معرضٌ عنّي لا تأبه بي حتّى عجّل هجرك عليّ بالشيب ، بل إنّ هجرك يشيب له الولدان .

ومن جميل اقتباساته التي تضيء بأشعتها القريحة ، وتجذب إليها القلوب والأفئدة ، وقد جمع بين الاقتباس وروعة الاكتفاء[٣٧] :

مخلع البسيط

جواي وجدي هواي شوقي

بهم عليهم لهم عليهم

تسرّني لوعة التصابي

و (كل حزب بما لديهم)

يحاول الشاعر في هذا النصّ أنْ يستشعر عمق مأساته ، وشجو نفسه لمن كلف بحبّهم ، وملّكهم قلبه ، فما وجد عندهم ما كان يؤمّله من وصالٍ ووداد ، ومع ذلك فإنّ لوعة التصابي ، وألم الفراق ممّا يسرّه ويفرحه ، وقد سخّر هذا المعنى معتمد في ذلك قوله تعالى (وكانوا شيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون) ، [الروم : ٣٢] .

ومن جميل الاقتباس الذي جاء مقروناً بالاكتفاء قوله[٣٨] :

لعمري لو أنصف العاذلو

ن فيما يقولون أو أمعنوا

رأوا منه وجهاً يضاهي البدو

ر بل هو من شمسها أحسنُ

فيا ليت شعري ما وجهه

(وما منع الناس أن يؤمنوا)

يقسم الشاعر أنّ عذّاله لو رأوا حسن محبوبه ما عذلوه على حبّه له ؛ وكان عليهم أنْ يصدّقوا ما قاله في حسن محبوبه وجماله ، منطلقا في هذا المعنى من قوله تعالى (وما منع الناس أنْ يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أنْ قالوا أبعث الله بشراً رسولا) ، [الإسراء : ٩٤] .

ويمضي على هذا النحو من الاقتباس في كلّ مناسبة ، أو ظرف يمرُّ به ، فيجلو شعره ، ويكسوه رونقاً وطلاوة، ذلك متى ما وضعت الآية القرآنية في مواضعها الملائمة من النص وقعت في النفس موقع الاستحسان ، قوله[٣٩] : [الكامل]

وإذا دهتْكَ صوارفُ الأيام من

سود الخطوب بما يهدّ ثبيرا

فثقنْ بربِّكَ فهو أكرمُ ناصرٍ

(وكفى بربِّكَ هادياً ونصيرا)

فالشاعر يدعو إلى التحلّي بالصبر ، وعدم الاستسلام إلى الجزع عند حلول البلاء ، وأنْ يثق الإنسان بربّه فيما قدّره عليه وقضاه ، فالله – عزّ وجل – وحده القادر على كشف الكرب والبلاء ، وقد جاء هذا المعنى متسقاً مع دلالة الآية الكريمة (وكفى بربِّكَ هادياً ونصيرا) ، [الفرقان : ٣١] .

وكذلك قوله فيمن أساء إليه وآذوه فشفع لهم ولده عنده ، فما قبل شفاعته لهم ، وحينما أراد أنْ يعبّر عن شدّة امتعاضه وانزعاجه منهم لم يجد أبلغ من العذاب الوبيل

حتّى صار لمهلكهم موعداً ، وهو في ذلك يستحضر معنى الآية القرآنية (وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) [الكهف : ٥٩][٤٠] : [المتقارب]

فلا تشفعنْ يا حبيبي فقد

عتوا وليُجاوزا بورد الردى

نريهم عذاباً وبيلاً ، وقد

(جعلنا لمهلكهم موعدا)

ومن خلال هذا الاقتباس الذي ورد في شعر أبي الفضل الطهراني نجد انسجام الألفاظ القرآنية المقتبسة مع ألفاظ الشاعر وتفاعلها ، فليس ثمة غرابة بينها وبين النص المقتبس ، فهي تمتزج بعلاقات جديدة في نطاق العبارات ، كما يشهد هذا الاقتباس لأبي الفضل الطهراني بتمكّنه واستظهار ما تيسّر من القرآن الكريم ، والبصر بدقائق أسراره .

ونكتفي بهذا القدر بياناً للشواهد التي أوردناها دون النظر إلى غيرها ، وفيها ما يدلّ على ذوق الشاعر ، ودقة اختياره للنص المقتبس منه .

ثانياً – الاقتباس الإشاري :

ويراد به أنْ يقتبس الشاعر من معاني القرآن وصوره ، وهنا يحقّ للشاعر أنْ يغيّر اللفظ المقتبس من القرآن بزيادة أو نقصان ، أو تقديمٍ أو تأخير ، أو إبدال الظاهر من المضمر ، كون (المقتبس منه ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله ، بدليل جواز النقل عن معناه الأصلي، وتغيير يسير فيه)[٤١] .

ومن غير شكٍّ أنّ المعنى القرآني الذي يقتبسه الشاعر شيءٌ ، والمعنى الذي يريده الشاعر شيء آخر ؛ لأنّ اتحاد المفهوم في ضمير الشاعر لا يتم إلاّ أنْ يكتفي ببقاء أكثر الألفاظ على مفهومه . وهذا النوع من الاقتباس الإشاري يقع في وجهين :

١- المعاني :

وفي إطار المعنى القرآني يلجأ الشاعر أبو الفضل الطهراني في كثير من نصوصه الشعرية إلى توظيف المعني القرآني ، وإدراجه ضمن معاني نصوصه ، رغبة منه في تقوية المعنى الذي يريده، وطلباً للوضوح والتأثير ، لاسيما وأنّ القرآن غنيٌّ بمعانيه ، والمعروف أنّ أبا الفضل الطهراني يهتمُّ بمعانيه اهتماماً كبيراً ، بل يفتن في الغوص عن المعنى الجميل ؛ لهذا يستثمر معاني القرآن للتعبير عمّا يجيش في صدره من انفعالاتٍ وأحاسيس هي ترجمة حيَّة لنوازع نفسه وخلجاتها . وهذا النوع من الاقتباس في شعره كثير بالنسبة إلى باقي الأنواع الأخرى .

ومن المعاني التي تداولها في شعره ، قوله[٤٢] : [الوافر]

لنا قومٌ من الضعفاء لكن

لهم من حمقهم أعلى نصابِ

وإن يسلبهمُ شيئاً ذبابٌ

فلن يستنقذوه من الذبابِ

في هذا النص يصف الشاعر قوماً حمقى لا قدرة لهم في مواجهة الأمور لضعفهم ، وبلغ من ضعفهم أنّهم لا يقدرون على دفع أذى الذباب عن أنفسهم ، واستطاع الشاعر أن يتكئ في معناه على قوله تعالى (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) ، [الحج : ٧٣] .

ومن جميل معانيها المقتبسة قوله[٤٣] : [المنسرح]

فقهٌ وأصولٌ وكلامٌ وأدبْ

طبٌّ وتفلسفٌ وأيّامُ عَرَبْ

إنْ لم يزدِ القلب بهاءً وصفا

فخرٌ وتكاثرٌ ولهوٌ ولعبْ

إنّ المعنى الذي ساقه الشاعر في هذا النص مقتبس من قوله تعالى (إنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر) ، [الحديد : ٢٠] .

وقوله[٤٤] : [الخفيف]

عجباً قد غدا أولو الألبابِ

يدخلون البيوت من غير بابِ

قد تولّوا نيل الحقائق لكن

زعموا اللفظ فيه فصل الخطابِ

في هذا النص نجد الشاعر مندهشاً من أولئك الذين يشتغلون بظاهر العلوم دون الالتفات إلى الباطن، مستثمراً المعنى القرآني الذي أرشدت إليه الآية القرآنية (وأتوا البيوت من أبوابها)،[البقرة : ١٨٩].

وقوله[٤٥] : [الطويل]

أرى كلّ حسنٍ غير حُسنك ذاهباً

وحسنك مما ينفع الناس يمكثُ

لحا الله أقواماً رأوك فأعرضوا

وقد جاءهم ذكرٌ من الله محدثُ

يصف الشاعر في البيت الأول جمال المحبوب الذي لا يضاهيه جمال ، بل يرى أنّ كلّ حسن غير حسنه ذاهب ، وأنّ حسنه ممّا ينتفع به الناس كلّما كحّلوا عيونهم بجماله الأخّاذ ، وقد اتكأ في هذا المعنى على قوله تعالى (فأمّا الزبدُ فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ،[الرعد : ١٧] .

وفي البيت الثاني نرى الشاعر غير راض عن الذين أعرضوا عن هذا الجمال ، بل يدعو عليهم فهم (ما يأتيهم من ذكر محدث إلاّ كانوا عنه معرضين) , [الشعراء : ٥] .

وكذلك قوله[٤٦] : [البسيط]

أحلى وأطيب ما كان الزمان لنا

يومٌ أراني ذاك المنظر الحسنا

قرأتُ من وجهه آيَ السُّرور فيا

طوبى له فهو عنّي أذهب الحزنا

إنّ من يتأمّل هذا النص يستحضر مقام وسياق الآية (وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إنّ ربّنا لغفورٌ شكور) ، [فاطر : ٣٤] .

وقوله في البشارة بظهور المهدي عليه السلام[٤٧] : [الوافر]

أبشركم وإن جلّت خطوبٌ

فإن تغدوا عليها صابرينا

يقرّ الله أعينكم بمولًى

به تعمى عيون الناصبينا

ويخزيهم وينصركم عليهم

ويشف صدور قومٍ مؤمنينا

مقتبس من قوله تعالى (قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين) ، [التوبة : ١٤] .

٢ــ الصور :

تعدُّ الصورة الشعرية من العناصر الأساسية في عملية التقويم الفني للشعر ، فهي أشدّ العناصر تأثيراً في النفس ، بل هي (الوسيلة التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرّائه أو سامعيه)[٤٨] .

لقد اتخذ أبو الفضل الطهراني من الصورة الشعرية وسيلة مهمة للتعبير عن رؤاه وأفكاره في تجسيد الأبعاد المختلفة التي تعكس مهارته الفنية في صياغة (نسخة جماليَّة تستحضر فيها لغةُ الإبداع ؛ الهيئةَ الحسيَّة ، أو الشعوريَّة للأجسام ، أو المعاني ؛ بصياغة جديدة ؛ تمليها قدرة الشاعر ، وتجربته ، وفق تعادليَّة فنيَّة بين طرفين ، هما : الحقيقة ،

والمجاز)(٤٩) .

ويستمدُ الشاعرُ صورَهُ ومعانيه من القرآن الكريم، معتمداً في ذلك على ملكة التخييل ، وقدرته على التأليف بين الصور والمعاني ؛ إذْ أنَّ الصورة قوام المعنى ، ولا قيمة للصورة من دونه ؛ لهذا نجده يرسم الصورة الرائعة ، ويختار لها أجمل إطار ، ويلجأ إلى إثارة الخيال كونه عنصراً مهماً من عناصر تشكيل الصورة الفنيَّة الحيَّة من خلال تضمين النصّ الشعري صوراً من القرآن مستثمراً الصورة التي استخدمها في رسم مشهدٍ معين ؛ لأنّ القرآن قد حوى بين دفتيه طائفة كبيرة من الصور المبتكرة التي أغنت الخيال العربي ، وفي هذا ما يدلُّ على شاعرية خصبة ، وإنْ كان ما يزال يغوص وراء الصور حتى يأتي منها بفرائد عجيبة مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، ممّا يدلُّ على أنّه كان شاعراً مبدعاً متمكّناً من فنّه ، ذا طاقة إبداعية هائلة ، وقدرة فنية واسعة في استثمار النصّ القرآني استثماراً يليق بالمعنى الذي يروم إيضاحه ، وإبراز صورته . وهو في ذلك يستند إلى ضروب البيان المعروفة كالتشبيه والاستعارة والكناية . ومن ذلك قوله[٥٠] : [الطويل]

وهبّت سمومٌ لو سرت في جهنّم
لفرّت وهل يجدي الفرار إلى قطر
تزحزح جسم الأرض منها مزلزلاً
إذ الريح ترمي بالشرارة كالقصرِ

نجد الشاعر قد استعمل لفظ (القصر) وما تمنحه هذه اللفظة من دلالة إيحائية ، وصورة جميلة تتضاءل دونها أيّ صورة أخرى في هذا الموضع من خلال هذا التشبيه المرسل مقتفياً في ذلك أثر القرآن الكريم في قوله تعالى (إنّها ترمي بشررٍ كالقصر) ، [المرسلات : ٣٢] .

ومن جميل صوره قوله[٥١] : [البسيط]

في كلِّ معتركٍ بالحرب مستعر
بالنقع معتجر بالدم ريّان
ترى الأعادي به صرعى كأنّهم
أعجازُ نخلٍ فصنوانٍ وصنوانِ

تمثلت الصورة في البيت الثاني حيث يشبّه الأعداء وهم صرعى بأعجاز النخل ، والجامع بينهما الانعدام ، وهو مقتبس من قوله تعالى (فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية) ، [الحاقة : ٧] .

ومن الاستعارة قوله[٥٢] : [الخفيف]

ظلماتٌ بعضها فوق بعض
أم سطورٌ تُدرّجتْ في كتابِ
ولعمري ما حاولوا الكشف إلاّ
وتوارت شمس الهدى بالحجابِ

إنَّ من يتأمل البيت الثاني يجد كلمة لم تستعمل في معناها الحقيقي ؛ فكلمة (وتوارت شمس الهدى بالحجاب) , فالشاعر هنا يتجوَّز في الكلمة فيطلقها على غير معناها في اللغة ولا يكمل تعلق الهدى من دون الشمس تحقيقاً للمبالغة في التشبيه , وقد استمد هذه الصورة من قوله تعالى (فقال إنّي أحببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربّي حتّى توارت بالحجاب)، [ص : ٣٢] . فالصلة بين الآية الكريمة والبيت واضحة ، ولكنّ أبا الفضل الطهراني مع ذلك حاول أنْ يحدث تحويراً في الصورة عندما استعمل لفظ (شمس الهدى) .

وقوله[٥٣] : [المنسرح]

رحمٌ وجفاءٌ ووصالٌ ونوى
منها اعتدلت لليلنا منك قوى
لم أهتدِ هل أحزن أم أفرحني
قد ضلّ به صاحب عقلي وغوى

وهذه صورة جميلة مستوحاة من قوله تعالى(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)، [النجم : ٢] ؛ فالآية فيها دلالة بيانية هي كناية عن موصوف وهو النبي محمد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - إلاّ أنّ الشاعر غيّر شيئاً من ألفاظ الآية فجاء (بصاحب عقلي) بدل صاحبكم، وهو من باب الاستعارة ؛ حيث عبرَّ عن العقل تعبيراً دقيقاً من خلال هذا التشخيص الذي جعل من العقل شخصية قابلة للضلال ؛ ولا شكّ أنّ العقل لا يضلّ ، وإنّما الضلالة للإنسان ، ومراد الشاعر ، ما تاه عقلي عن هواكم ولا صدّ ، بل بقي محافظاً لودادكم ، راعياً لعهدكم .

وقوله(٥٤) :

قد وردنا من المكارم دارا
علّها من يد الخطوب تقينا
فرأينا لمّا أجلنا لحاظاً
في رباها من حسنها تلتقينا
جنّة عرضها السّموات والأر
ض أعدّت بالخير للمتقينا

فالصورة في هذا النص مستقاة من قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّة عرضها السّموات والأرض أعدّت للمتقين) ، [آل عمران : ١٣٣] . وقد عبّرت الآية بالكناية عن سعة الجنة، إلاّ أنّ الشاعر لم يرد هذا المعنى فهو يصف داراً لأحد الوجهاء ، لهذا شبّهها بالجنة في حسنها وسعتها .

هذا آخر ما اخترته من سائر ديوان أبي الفضل الطهراني ، وبديع نظمه في الاقتباس ؛ لتكون مثلاً على اقتباساته الباقية التي وردت في شعره ، فأضفت عليه هذه النفحة الزكية من الرقة والجمال ، وقد جرت في شعره في بساطة ويسر ، فأكسبته حلاوة وقوة .

الخاتمة

وكان ممّا افرز البحث من نتائج نحسب أنّها ذات أهمية :

١- يعدّ أبو الفضل الطهراني في الذروة من شعراء إيران الذين يجيدون النظم في اللغة العربية ، على الرغم من شهرته عالماً فقيهاً أصولياً إلاّ أنّ الغالب عليه الأدب والشعر ، وكانت له أشعار جيدة تحتوي على نكات بديعة ، ومعان دقيقة .

١- أبرز البحث عن مجيء الاقتباس كأحسن ما يكون عليه في إبراز المعنى ، وإيضاح الصورة ، ولا ريب من أنّ الألفاظ المقتبسة من القرآن تزيد الكلام قوّة وبلاغة ، كما تضفي عليه حسناً وجمالاً .

٢- إنّ ما اقتبس من القرآن الكريم أنْ يكون غير خارج عن معناه الذي ورد به القرآن ، ويصح أنْ يكون خارجاً بشيءٍ من التصرّف ، وفي الحالة الأولى يعد المضمّن قرآناً ، بشرط أنْ لا يكون فيه أدنى تحريف لفظي ، وفي الحالة الثانية لا يعد قرآناً ولو لم يتغيّر لفظه .

٤- إنّ أثر القرآن الكريم بدا واضحاً في الشعر العربي منذ نزول القرآن على النبي محمد – صلى الله عليه وآله وسلّم - ويظهر أثره في مجال خصائص الشعر وسماته ، بما يضفي على النص من دلالات عظيمة، ومعان راقية تكشف عن حفاوة الشاعر واهتمامه بكتاب الله عز وجل .

٣- أبان البحث أنّ أبا الفضل الطهراني كان مفتوناً بالاقتباس وقد استعمله كثيراً في شعره حتى أصبح يشكّل ظاهرة بارزةً في شعره ، وافتنَّ في صياغته ، وأظهر حرصه على استعارة ألفاظ القرآن ومعانيه

وصوره ، والإفادة منه قصداً للاستعانة على تأييد المعنى المقصود ، وإظهار مهاراته الفنية ، وقدراته الإبداعية على النظم فيه .

٤- استعان أبو الفضل الطهراني بالقرآن كثيراً في التعبير عمّا يعتلجُ في صدره ، من خلال نزوعه إلى الأخذ منه مراراً وتكراراً ، بما يشهد له بطول الباع ، والفهم الدقيق ، والذوق الصحيح في اختيار المناسبة بما يتلاءم والمقتبس منه ، من غير أنْ يعتري اللفظ شذوذ ، أو قلق ، أو حرج ، ومن غير أنْ يبدو الكلام مرذولاً مردوداً .

٦- إنّ جنوح أبي الفضل الطهراني إلى الاقتباس من القرآن الكريم ؛ لما للقرآن الكريم من موقع مستحسن في النفس ، فضلاً عمّا يمنحه الاقتباس من تقوية المعنى ، وما يضفي عليه من دلالات إيحائية ذات تأثير وقوة .

٧- وأبرز البحث أنّ الاقتباس في شعر أبي الفضل الطهراني قد جاء على نوعين هما الاقتباس النصي، وقد تمثّل بما أودعه الشاعر من آي الذكر الحكيم، دون أنْ يتصرّف بألفاظه ، أو أنْ ينبّه عليها أحد ، وكأنّه جزءٌ من شعره . والاقتباس الاشاري وقد تلمسنا فيه كيف غيّر الشاعر لفظ المقتبس منه بزيادة أو نقصان ، أو تقديمٍ أو تأخير ، أو إبدال الظاهر من المضمر ، وقد وقع هذا الاقتباس في المعاني والصور .

الهوامش

١- ينظر في ترجمته : أعيان الشيعة : ٤٧٥ ، شعراء الغري : ٣٣٤/١ ، معجم الشعراء : ، المفصّل في تاريخ النجف الأشرف : ٣٧/٩ .

٢- أعيان الشيعة : ٤١٣/٢ .

٣- المصدر نفسه : ٤١٣/٢ .

٤- المفصّل : ٣٧/٩ .

٥- ينظر أعيان الشيعة : ٤٧٥/٢ ، المفصّل : ٣٧/٩ .

٦- أعيان الشيعة : ٤٧٥/٢ .

٧- أعيان الشيعة : ٤٧٥/٢ .

٨- المفصّل ٣٧/٩ .

٩- شعراء الغري : ٣٣٤/١ .

١٠- أعيان الشيعة : ٤٧٥/٢ .

١١- ينظر عن مؤلفاته : أعيان الشيعة : ٤٧٥/٢ ، معجم المؤلفين العراقيين : ٧١/٨ ، المفصّل في تاريخ النجف : ٣٨/٩ .

١٢- لسان العرب (مادة قبس) : ٢٠١/٦-٢٠٢ ، والمصباح المنير (مادة قبس) : ٢٨٢ .

١٣- مواهب الفتاح : ٦٨٣/٢ .

١٤- الأطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) : ٥٠٩/٢ .

١٥- كتاب الاقتباس من القرآن الكريم : ٨١ .

١٦- المثل السائر : ٤٢/١ .

١٧- حسن التوسل : ٣٢٣ .

١٨- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز : ٤٣٨ .

١٩- خزانة الأدب للحموي : ٣٥٧/٤ .

٢٠- أنوار الربيع : ٢١٧/٢ .

٢١- شرح عقود الجمان : ٣٨٣ .

٢٢- عروس الأفراح : ٤٢١/٢ .

٢٣- الإيضاح : ٣٤٣ .

٢٤- كتاب الاقتباس من القرآن الكريم : ٨٢ .

٢٥- المثل السائر : ٤٢/١ .

٢٦- إحكام صنعة الكلام : ١٦٩ .

٢٧- كتاب الاقتباس من القرآن الكريم : ٨٢ .

٢٨- البرهان في علوم القرآن : ٢٣ .

٢٩- حسن التوسل : ٧٦ .
٣٠- البيان والتبيين : ٧٣/٤ .
٣١- الإيجاز : ٤٣٩ .
٣٢- علم البديع : ٢٢٥ .
٣٣- حسن التوسل : ٧٣ .
٣٤- المثل السائر : ٢٨٧/٢ .
٣٥- ديوان أبي الفضل الطهراني : ٤٥٥ .
٣٦- الديوان : ٣١٢-٣١٣ .
٣٧- الديوان : ٧١ .
٣٨- الديوان : ٤٩٧ .
٣٩- الديوان : ٥٦٧ .
٤٠- الديوان : ٢٩١ .
٤١- الديوان : ١٩٢ .
٤٢- أنوار الربيع : ٢١٧/٢ .
٤٣- ديوان أبي الفضل الطهراني : ٧٩ .
٤٤- الديوان : ٧٧ .
٤٥- الديوان : ٦٨ .
٤٦- الديوان : ١١٦ .
٤٧- الديوان : ٥٥٩ .
٤٨- الديوان : ٥٦٢ .
٤٩- أصول النقد الأدبي : ٢٤١.
٥٠- الصورة الفنيَّة معياراً نقديّاً : ١٥٩ .
٥١- الديوان : ٢٥٤ .
٥٢- الديوان : ٥١٩ .
٥٣- الديوان : ٦٨ .
٥٤- الديوان : ٥٣ .
٥٥- الديوان : ٥٦٦ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

٢- إحكام صنعة الكلام : لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأندلسي (أحد أعلام القرن السادس الهجري) ، تحقيق : د . محمد رضوان الداية ، مطبعة النجوى ، بيروت ، ١٩٦٦م ،

٣- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : لركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني (ت : ٧٢٩هـ) ، علق عليه : إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٤- أصول النقد الأدبي : د . أحمد الشايب ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٤٢م

٥- الأطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) : لإبراهيم بن محمد بن عربشاه الحنفي(ت : ٩٤٣هـ) تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

٧- الاقتباس من القرآن الكريم : لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق: د . ابتسام مرهون الصفار ، عالم الكتب الحديث ، أربد ، ط١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .

٨- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز : ليحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) تحقيق : د . بن عيسى باطاهر ، دار المدار الإسلامي ، ط١، ٢٠٠٧هـ .

٩- الإيضاح في علوم البلاغة : لجمال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) تحقيق : د . علي بو ملحم ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأخيرة ، ٢٠٠٠م .

١١- البرهان في علوم القرآن : لبدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي (ت : ٧٩٤هـ)، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

١٢- البيان والتبيين : لأبي عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) تحقيق : محمد عبد السلام هارون ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢ .

١٣- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان : لشرف الدين الحسين بن محمد الطيبي (ت ٧٤٣هـ)، تحقيق : د . توفيق الفيل ، مطبعة ذات السلاسل ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

- التعريفات : للشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

١٥- حسن التوسل إلى صناعة الترسل : لشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت : ٧٢٥هـ) ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، دار الحرية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٠م .

١٧- ديوان أبي الفضل الطهراني (ت ١٢٧٣هـ) ، تحقيق محمد الكاظم ، مطبعة مؤسسة العروج ، طهران ، ١٤٢٨هـ .

١٨- زهر الربيع في شواهد البديع : لناصر الدين محمد بن قرقماس (ت : ٨٨٢هـ) تحقيق : د . مهدي أسعد عرار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

١٩- شرح عقود الجمان في المعاني والبيان : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت : ٩١١هـ) تحقيق : د . إبراهيم محمد الحمداني ، ود . أمين لقمان الحبّار ، دار الكتب العلمية، بيروت ،

ط١ ، ٢٠١١م .
٢٠- شرح الكافية : لصفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي (ت :٧٥٠هـ) تحقيق : د . رشيد عبد الرحمن العبيدي ، مطبعة الوقف السنّي ، بغداد ، ط١ ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
٢٢- الصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع : لمحمد بن قاسم بن زاكور الفاسي (ت١١٢٠هـ) ، تحقيق : بشرى البداوي ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠١- ٢٠٠٢م .
٢٣- الصورة الفنيَّة معياراً نقديّاً (منحى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير) : د . عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .
٢٤- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧٣هـ) تحقيق : د . خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
٢٥- علم البديع : الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٢٦- لسان العرب : لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي (ت : ٧١١هـ) ، تحقيق : عامر أحمد حيدر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
٢٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت : ٦٣٧هـ) تحقيق : كامل محمد عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
٢٩- المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي (ت : ٧٧٠هـ) اعتنى به : أحمد جاد ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
٣٠- المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم : لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
٣٢- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح : لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب المغربي (ت : ١١٢٨هـ) تحقيق : د . خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت .